

## الحياة العلمية في أكسفورد

ترسل الولايات المتحدة بعثات تعليمية عدة الى الجامعات الاوربية . وقد قرأنا في احدى المجلات الامريكية وصفا شائقا لما يجنيه الطالب الامريكي من أكسفورد فأثرنا تلخيصه لقراء الصحيفة . ففي هذا العدد أتينا على وصف الحياة العلمية بتلك الجامعة الذائعة الصيت ، وسنأتي في العدد القادم ، إن شاء الله ، على وصف الحياة الاجتماعية والرياضية فيها .

### ماذا يجني الطالب الامريكي من أكسفورد ؟

ليس للإجابة على هذا السؤال كيفية واحدة ، بل ان له من الأجوبة بقدر عدد الطلبة الذين يذهبون الى أكسفورد . فاذا اضطرنا العمل الصحفي الى إغفال الافراد ، والكتابة عن « الطالب الامريكي » بوجه عام ، كما لو كان كل الطلبة سواء ، متعادلين في كفاياتهم ومتفهمين في تجاربهم ، فلعل القارئ لا ينسى أن ما يجنيه الطالب من أكسفورد ، مثل ما يجنيه من أكثر الفرض التي تعرض له ، يتناسب مع ما يبذله من جانبه ، وأن العين انما ترى ما قد كسبت القدرة على رؤيته ، وأن الطالب لا يتعلم في الذائب إلا الجواب على الاسئلة التي تشغل عقله . وهذا يصدق على أكسفورد أكثر مما يصدق على معظم الجامعات الأخرى . ففيها « خيرات الله الواسعة » من حيث الفرض التعليمية والتهدئية . ولكن فيها أيضا تطلق للطالب الحرية بأوسع معانيها في أن يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء على حسب اختياره . فلا يساق الى الطيبات سوقا ، بل يجب أن تكون في نفسه الرغبة للأخذ ، وأن يعرف ما الذي يشتميه ، كما أنه يجب أن يمنعه أدبه من النهم .

وعند ما يسأل المرء عما يعود به الطالب من اكسفر د ، فأول ما يتبادر الى ذهنه هو « الدرجة » . (١) ولدرجات اكسفر د معني خاص ، لما استلزمه من الشروط العلمية القيمة . ولا تقيد دراسة الطالب الامريكى بقيد ما . فيستطيع إعداد نفسه لأى درجة شاء من « بكالوريوس فى الآداب » الى « دكتور فى الفلسفة » . وأمامه مجال واسع للاختيار فى العلوم ، كما فى الجامعات الامريكية سواء بسواء . وتدل درجة « بكالوريوس فى الآداب مع الشرف » من اكسفر د على تعليم أكثر تخصصاً مما تدل عليه درجة « بكالوريوس » الامريكية . نعم ان الدراسة فى اكسفر د مقرونة بروح « الحرية » ، (٢) ولكن هذه الجامعة لا تحاول الوصول الى هذه « الحرية »

(١) « degree » ونطلق على شهادات الجامعات الانكليزية .

(٢) من أكبر الصعوبات التى يلاقها المترجم فى الموضوعات العلمية عدم توافر المصطلحات الخاصة بالعلم فى اللغة العربية . فقد عرضت لنا فى هذا المقال مثلاً لفظة « liberal education » ومشتقاتها ، مثل « liberality » ، ويقصد بها التربية التهذيبية الواسعة التى لا يراود بها أعداد الطالب لمهنة خاصة . واذا سمع الانجليزى الملم بعلم التربية أمثال هذه المصطلحات اوردت الى ذهنه معنى محدد . أما فى العربية فلم يتفق على ألفاظ تعبر بها عن هذه المعانى المعينة وليس من المناسب ترجمتها بجمل طويلة . وقد ترجمنا كلمة « liberality » هنا بكلمة « الحرية » مع اعترافنا بأنها مهمة لا تؤدى المعنى بوضوح . واستعملنا فى مواضع أخرى اسم « التربية التهذيبية الواسعة » على حسب المقام .

وفى البلاد الآن نهضة فى التأليف والترجمة بحيثى أن تؤول الى الفوضى اذا لم يتفق على المصطلحات العربية الخاصة لكل علم . ولا يصح أن يترك هذا للانفراد لأن الفرد يندر أن تتوافر فيه جميع الشروط اللازمة للقيام بمثل هذا العمل ، ولانه اذا ألف أو ترجم عدة أفراد فى موضوع واحد فكثيراً ما يضعون مصطلحات مختلفة للمعنى الواحد ، ولا يخفى ما يجر اليه هذا من الارتباك . فالحاجة ماسة الى تأليف

بشكل نحاول نحن في أمريكا - بتعدد مواد الدراسة ، بل تعتمد على التوسع في دراسة مادة واحدة . وأما المعارف العامة التي يحصل عليها الطالب الأمريكي بدراسة مقررات عدة متنوعة ، فإن طالب أكسفورد يعتمد في تحصيلها على مطالعة العامة - وهي طريقة أقرب كثيرا إلى الاقتصاد .

أما شروط النجاح في أي درجة من درجات أكسفورد فإنها تظهر على الورق أقصر مدى ، وأقرب مثلا من أمثالها بالجامعات الأمريكية . ولكن ما ينقصه النظام المدرسي الاتكاري عن نظامنا في السعة يستعوض عنه بالالتقان . فهم شديدو التدقيق في مراعاة الشروط ، بل قد يتوسعون في تفسيرها عند التقييد . وطريقتهم في الامتحانات تجرد الاستظهار ( الصم )

مجمع لغوي للقيام بهذا العمل الخطير ، وأولى الهيئات بالاشرف عليه هي وزارة المعارف العمومية . نعم إنا نذكر أنها ألفت لجنة هذا الغرض منذ بضع سنوات ، ولكن نظيعة تأليفها جعلت فشلها حتما . فليس هذا عمل يحتاج فيه إلى ذوي المقامات والالقاب ، بل إلى ذوي المعرفة والنشاط .

ولضمان نجاح المجمع اللغوي في أداء مهمته ، يجب :  
 (أولا) أن تستدرسته إلى رجل جمع بين الخبرة والحمة ، والقدرة الإدارية والتنظيمية .  
 (ثانيا) أن تكون أكثرية أعضائه من الإخصائيين في مختلف العلوم ، وبحسن إلمام يكون يفهم من درسوا هذه العلوم بلغات اجنبية مختلفة ، والباقيون يكونون من علماء اللغة ذوي الاطلاع الواسع والفكر الدقيق .

وبعد ان يتفق المجمع على المبادئ العامة التي يسير عليها في وضع المصطلحات ، فينضم إلى لجان فرعية تخصص كل لجنة منها بعلم من العلوم .

هذا واجب لا يحتمل التسويف . فلعله يلاقي من وزارة المعارف العناية التي تستحقها . أما إذا لم يكن هذا ، فإننا نقترح على نقابة المعلمين أن تقوم به ، بالاشتراك مع « لجنة التأليف والترجمة والنشر » بقدر ما تسمح لهما به مواردهما . - المترجم

من كل فائدة ، وتقتصر اعتماد الرجل على ما يعرفه حتى المعرفة : ولا ادراك الفرق بين المستوى الانكليزي والمستوى الامريكى في الدراسة ، يجب أن تفحص أصناف الرجال الذين يحرزون أسمى الدرجات العلمية في المملكيتين . ففي امريكا يستطيع الحصول على هذه الدرجات رجل ذو كفاية ممتازة يعني بعمله عناية متوسطة طول مدة سنوات دراسته الاربع ، أو رجل ذو كفاية متوسطة ولكنه يكدر آناء الليل وأطراف النهار ، ولا يترك دقيقة من وقته دون الانتفاع بها . وربما لا يكون في الولايات المتحدة درجة عالية يبلغ ارتفاع مستواها حداً يتطلب من رجل من الصنف الاول أن ينسج في شغله علي المنوال الثاني .

أما رأى الانجليز في شهادة الشرف من الطبقة الاولى فهو أنها شهادة لا ينالها الا من جمع بين مقدرة من الطبقة الاولى ، وجد ومثارة يمكنانه من بذل أقصى ما يستطيع بذله من الجهود ، والانتفاع بمقدرته الى أبعد حد مستطاع

ويجد الطالب الامريكى أكسفرده خالية من أكثر النظم المدرسية التي الفها في جامعات بلاده . فليس فيها «مقررات دراسية» بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ في أمريكا ، وليس فيها «بطاقات للتقيد» في مكتب «السكرتير» ولا يطلب من الطالب أن يوقع باسمه أمام المحاضرات التي ينوي استماعها ، ولا يكلف حدداً معيناً من الدروس يحضرها في الاسبوع ، ولا يحدد له عمل اليوم في كل علم ، ولا تتخلل الاختبارات الفصل الدراسي بالجامعة . وان الطالب الامريكى لتدركه الحيرة في صباح يوم الاثنين الاول له في أكسفرده وفي صباح أيام أخرى عدة بعد ذلك — فلا يعرف ما الذي ينتظر منه

أن يفعله في أية ساعة وفي أية لحظة. أيقراً هذا المجلد؟ أم يكب على استظهار تلك الجداول التاريخية؟ أم يذهب لاستماع محاضرة من المحاضرات؟ أم يجول في شارع «هاي ستريت» ليجث عن حانوت بائع التبغ؟ أم يقضى بضع ساعات في إحدى مكاتب أكسفورد الممتعة، فيزيد في ثروة مكتبته في مقابل ما ينقصه من ثقل كيس نقوده؟ إن في العالم الذي يفتح أمامه مجال العمل وللهو، ولا ف وسيلة أخرى بين الاثنين يستطيع أن يشغل بها وقته وهو حر في اختياره. والتغيد المدرسي الوحيد الذي لا يستطيع أن يتخلص منه هو أن يزور (أستاذه الخاص) (١) مرة في الاسبوع، في مياد معين، ليقرأ عليه مقالة يكون قد كتبها في موضوع عينه له. وعنده قائمة بالمحاضرات، فهو يحضرها إذا راقت في نظره، والا فلا جناح عليه. وقد يدعشه أن يجد «أستاذه الخاص» يقرر بصراحة أنه لا يؤمن بفائدة الاكثار من سماع المحاضرات بل كثيراً ما يتعدى هذا الشك «الاستاذ الخاص» الى المحاضر نفسه. وقد سمعت «سير ولتر رالي» أكثر من مرة ينبه سامعيه، عند ما يبدأ فصل محاضراته، الى أنهم لن يجدوا فيها في الغالب شيئاً يفهم من الوجهة الامتجانية. ولا يحفظ المحاضر قائمة بأسماء طلبة فرقة. وقد اعتاد الطلبة أن يستمعوا المحاضرات في علوم عدة في أول الفصل الدراسي كنموذج (عينه)؛ على ألا يواصلوا الاستماع الا فيما يرون فيه فائدة لهم. وهذا السبيل هو الذي ينصح لهم «أساتذتهم الخصيصيون» عادة بانتهاجه. ويكون من نتائجها أن سلاسل المحاضرات تبدأ في أكسفورد بعدد وافر من المستمعين، ولكنه لا يثبت أن يتناقص؛ فلا يبق منه في آخر الفصل

(١) وهو الاستاذ الذي يتعهد الطالب ويراقب عمله في غير اوقات المحاضرات

الدراسي الاقليلون العيورون .

إن الانسان ليأخذه العجب من بساطة النظام المدرسي في اكسفرد -  
إذا صح أن نطلق عليه هذا الاسم - فالطريقة المتبعة تقضي بالآيحدد للطالب  
ما ينبغي أن « يأخذه » من الدروس ، بل ما ينبغي أن يعرفه في النهاية ، وأن  
يترك له وقت معين لتحصيل تلك المعارف ، ثم يتمجن فيها ليعرف أحصائها  
حقيقة أم لا . على أن لفظة « التحصيل » لا تتفق مع حقيقة ما تتطلبه  
اكسفرد من الانسان . لأن نظرية هذه الجامعة عن التربية الحرة الواسعة  
هي أنها ترمي الى تنمية قوة التفكير ، والاحاطة بدائرة محدودة من  
العلوم ، أكثر مما ترمي الى تكديس المعلومات في العقل ولو أن هذا  
بالطبع لازم للغرض الأول . فالطالب الامريكي يدرس « مقررات » ، وأما  
طالب اكسفرد فانه يتفقه في علم .

وليس نظام « الاساتذة الخصوصيين » في التعليم إلا نتيجة طبيعية  
للشكل الذي اتخذته مطالب اكسفرد الدراسية . وهذا يعامل ما نشاهده  
من أن محاولة إدخال هذه الطريقة على نظام التعليم الشائع في أمريكا ، وهو  
نظام « المقررات » ، لا تؤدي الى نفس النتائج التي يوصل اليها النظام  
الانكليزي . جوهر هذا النظام هو النظر في عمل الطالب الي ما ينبغي أن  
يعرفه في النهاية ، لا الي الاسلوب الذي يصل به الى هذه المعرفة . ففي  
اكسفرد يقتصر في تحديد عمل الطالب في قانون الجامعة على ذكر  
الامتحانات التي يجب أن يجتازها للحصول على « الدرجة » ، ويترك حراً  
في اعداد نفسه لهذه الامتحانات بمجهوده الشخصي ، تحت مراقبة « أستاذه  
الخاص » . ويقف الاستاذ من الطالب موقف المرشد والصديق

والفيلسوف . فيعين تلميذه بكل ما يستطيعه من وسائل النصح والنقد على أن ينتفع لاقصي حد ممكن من مواهبه ، ومن الفرص التعليمية التي تقدمها له الجامعة والكليات . ولكنه لا يعد نفسه مطالباً بأن « يمتيه العلم بالملعة » فنجاح الطالب يتوقف قبل كل شيء على جده واجتهاده ، وعلى القوة الداخلية التي تدفعه الى الشغل . ومن أهون الامور عليه أن يضع ثمين وقته في رياضة نفسه على العمل ، فتكون النتيجة وبالا عليه . أما اذا توافرت لديه القدرة على ترتيب عمله بنفسه ، والهمة والقوة الدافعة الكافيتين لمهله على الشغل دون مراقبة خارجية مستمرة ، ففي استطاعته أن يبلغ أبعاد شأوه ، وأن يقطم السبيل اليه بأسرع ما يود لنفسه . وقد تكون هذه القدرة على العمل المستقل أهم ثمرات نظام التعليم في أكسفورد .

ولا يقتصر غم الطالب الامريكى من أكسفورد على تبديل وجهة نظره الى عمله ، بل انه يتولد في نفسه فوق ذلك احترام جديد للامتحانات . ففي امريكا لا ينظر الى الامتحانات في العادة بعين الارتياح ، فقد تفشي الاعتقاد هذه الايام بأنها غير جدرة بأن يركن اليها في قياس القوة الفكرية . وربما لا تخلو انكلترا من أناس يعتقدون أن الامتحانات تلقي في بلادهم فوق ما تستحقه من العناية ، ويركن الى نتائجها أكثر من اللازم . ولكن مهما يكن الامر . فان الانكليز قد أقتنوا فن الامتحان ، وأوصلوه الى درجة كبيرة من الدقة . يدللك على هذا أن نتائج امتحانات أكسفورد تصدق اذا اتخذت أساسا للتنبؤ بحظ الطالب في مستقبل حياته . ولنا نعلم بأن الكتاب الهزئين قد يبالغون في وصف التباين بين درجة نجاح الطالب في كليته وبين درجة نجاحه في مستقبل حياته في أمريكا ولكن لا شك في أن تناسب

النجاح في الحالتين ليس مطردا عندنا كما هو في انكلترا . وامتحانات أكسفر دأصعب من امتحاناتنا . ولكنها أقل منها تفهيقا . ويفضل الانكليز أن يكون ممتحنو الطالب غير الاساتذة المسؤولين عن تعليمه . وان تأتي الامتحانات عقب شغل سنة أو سنتين ، بدل أن تتكرر فصلا بعد فصل ، أو أسبونا بعد أسبوع . ويفلب أن تكون امتحاناتهم من النوع الذي تطلب فيه كتيابة « مقالات » (١) . وترمى الى اختبار قدرة الطالب على البحث في الموضوع ، لا على مجرد تذكر تفصيلات معينة . ويتكون امتحان «درجة الشرف» عادة من سبع أوراق الى اثنتي عشرة ورقة ، يزمن الاجابة عن كل منها ثلاث ساعات . وتعطى للطالب تباعا اثنتين كل يوم ، فستغرق نحو أسبوع . ومن الجلي أن الاستظهار (الضم) لمثل هذه السلسلة من الاختبارات غير ميسر . ويشير الاساتذة على طلبتهم في العادة أن يرحلوا عن أكسفر قبل الامتحان ببضعة أيام . وينسوا كل ماله ارتباط بالكتب في هذه الفترة ويقضوا أوقاتهم في لعب «التنس» أو «الجلف» . واذا ما وصل الطالب الى غرفة الامتحان ، ووجد أمامه ورقة تحتوي على عشرة أسئلة أو اثني عشر سؤالا ، فإنه يصرف الساعتين الأوليين من وقته في الاجابة على السؤالين اللذين يعرف عنهما أكثر من غيرهما ، فيجيب عليهما بأقصى ما يستطيع من الامعان والافاضة . وفي الساعة الباقية بعد ذلك يجيب على السؤالين الآخرين أو ثلاثة ، بإيجاز ولكن مع اتقان الاجابة جهده .

ويبنى الانجليز تقدير الدرجات على النوع الاعلى الكمية . فيراعي في تقدير درجة الطالب درجة اجادته لما كتبه ، لا مقدار ما تركه . وبعد أن

تقرأ أوراثة جميعها يحضر أمام المتعاضين لتأدية الامتحان الشفوي . فتسبح لهم بذلك فرصة كافية لمناقشته في الموضوعات التي لم يذكرها في اجابته أما في الامتحان التحريري . فيجب أن يرمي الطالب الى جعل اجابته على بعض الموضوعات من الطبقة الاولى . ولا يقصد بهذا النوع في انجلترا مجرد اجابة تحتوي على المعلومات مهما غزرت ، بل يجب أن تم فوق ذلك عن سلامة التفكير ، واجادة الترتيب .

ويسهل علينا أن نرى مما سلف أن أم ما يكسبه الطالب الأمريكي من اكسفر دافع قوي يحمله على اعادة النظر في جميع آرائه عن نظريات التربية وطرقها العملية . فانه يذهب الي معهد يداخل أهله الشك في كثير من الآراء التي يقبلها الأمريكيون كقضية مسلم بها ، بل قد ترفض هذه الآراء فيه بتاتا . كما أنه يجد الانكاز يسلمون بأمر عدة مما ألف هو اعتباره خطراً أو باطلا . وقد يعود الطالب الى امريكادون أن يعتري عقيدته الفكرية أقل تغيير . ولكنه على كل حال لا بد أن يكون قد أمعن في البحث والتفكير في الاساس الذي بنى عليه معتقداته في التربية والتعليم . وهذه عملية جلية القيمة مهما كانت نتيجتها

اسماعيل محمود القبالي

